لهجــة ثمــود بين الحقيقة والوهم

The Dialect of Thamud between Truth and Illusion

Dialek Kaum Thamud antara Realiti dan Ilusi

محسن هاشم درويش*

ملخص البحث:

هذا بحث وصفي في لهجة من اللهجات العربية الشمالية البائدة، وهي لهجة ثمود، وقد قدَّمتُ للموضوع بتمهيد عن ذكر هذه القبيلة في القرآن الكريم وإثبات عربيتها به، ثم التوسع قليلاً في موضوع الكتابات الثمودية عبر بعض نقوشها المكتشفة في شبه الجزيرة العربية؛ لأنها — في رأيي- مفتاح لمعرفة قواعد هذه اللهجة من نحو وصرف وفهمها، ثم معرفة قربها أو بعدها من عربيتنا الباقية، أو سائر اللهجات العربية البائدة، وما إلى ذلك من مظاهر التطور اللغوي التاريخي الذي يكشف عن حلقة مهمة من تاريخ لغتنا العربية المباركة، في كل المستويات اللغوية المعروفة صوتياً وبنيوياً وتركيبياً ودلالياً. واقتضى البحث أن أُعرج عبر ذلك على القلم الذي كتب بها الثموديون آثارهم التي وصلت إلينا، وصولاً إلى بحث قواعد هذه اللهجة وما قيل فيها. وقد حاول الباحث أن يجيب عن السؤال الأهم: هل يمكن أن نعتمد على مثل النقوش التي نسبت إلى ثمود في دراسة تاريخ اللغة العربية وخصائصها؟

الكلمات المفتاحية: ثمود- القرآن- موطن ثمود- الكتابات الثموديَّة- قواعدها.

Abstract:

This is a descriptive research on a northern dialect of Arabic that is extinct

* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب – جامعة حائل، السعودية.

called the dialect of Thamud. This study begins with an introduction of this tribe in the Quran, and then a review of the Thamudic literature through some of their carvings discovered in the Arabian Peninsula. The key to knowing the rules of this dialect is in the syntax, morphology and understanding of it and other illusion dialects and the development of features in historical language of heritage. Then knowing the extent of its relation at all levels of language known phonetically and structurally and semantics. The methodology of research requests to talk about the pen that wrote the heritage of Thamud then discussing the rules of this dialect and what was said about it.The researcher is trying to answer the important question as follows: Is it possible to depend on such inscriptions belongs to Thamud in the study of the history Arabic language and its aspects.

Keywords: Thamudic Tribe – Holy Quran – Thamudic Writings – Its rules.

Abstrak:

Kajian ini merupakan kajian deskriptif yang membincangkan tentang salah satu dialek dalam bahasa Arab yang hampir pupus iaitu dialek kaum Thamud. Artikal ini bermula dengan mengkaji tentang kaum ini berdasarkan Al-Quran dan membuktikan ianya memang berasal daripada bangsa Arab seterusnya meluaskan perbincangkan tentang kaligrafi-kaligrafi kaum Thamud menerusi beberapa ukiran yang dijumpai di semenanjung Arab. Hal ini adalah kerana pada pendapat penyelidik, ia merupakan kunci untuk mengetahui dan memahami simbol-simbol bahasa ini serta mengetahui sejauh mana bahasa ini telah ditinggalkan oleh bahasa Arab yang digunakan pada masa kini atau bahasa-bahasa lain yang sudah pupus dan sebagainya. Ia merupakan sejarah perkembangan bahasa yang mendedahkan satu aspek penting dalam ketamadunan bahasa Arab dari semua peringkat bahasa samada fonetik, struktur ayat dan makna. Di samping itu, kajian ini juga turut mengkaji secara terperinci tentang pena yang digunakan oleh kaum Thamud bagi menulis kaligrafi mereka di atas monumen-monumen yang telah ditinggalkan kepada kita dan membincangkan tentang kaedah-kaedah bahasa ini serta apa yang telah ceritakan mengenainya. Penyelidik cuba untuk menjawab kepada persoalan yang penting dalam kajian ini iaitu, adakah kita boleh bergantung kepada ukiran-ukiran yang dikatakan sebagai tulisan yang ditinggalkan oleh kaum Thamud dalam mengkaji sejarah bahasa Arab dan keistimewaannya?

Kata kunci: Kaum Thamud – Al-Quran – Tempat Tinggal Kaum Thamud – Kaligrafi Kaum Thamud – Kaedahnya.

مقدمة:

هذا بحث في لهجة من اللهجات العربية الشمالية البائدة، وهي لهجة ثمود، وقد رأيت أن أقدِّم للموضوع بتمهيد عن ذكر هذه القبيلة في القرآن الكريم وإثبات عربيتها به، ثم التوسع قليلاً في موضوع الكتابات الثمودية ونقوشها المكتشفة؛ لأنها – في رأيي– مفتاح لمعرفة قواعد هذه اللهجة من نحو وصرف وفهمها، ثم معرفة قربها أو بعدها من عربيتنا الباقية، أو سائر اللهجات العربية البائدة .واقتضى البحث أن أُعرج خلال ذلك على القلم الذي كتب به الثموديون آثارهم التي وصلت إلينا، وصولاً إلى بحث قواعد هذه اللهجة وما قيل فيها، على أني عوّلت كثيراً في مبحث (قواعد اللهجة الثمودية) على كتاب الدكتور جواد علي (تاريخ العرب قبل الإسلام)؛ لأنه فرد في بابه، محيط في استيعابه، نقل إلينا مقولات كثير من المستشرقين الذين اهتموا وبحثوا ونقبوا في هذا الموضوع وتولَّوْا كبره، وكانت كتبهم باللغات الأجنبية، فقدمها إلينا مترجمةً، لذلك فالتعويل عليه في هذا المبحث وعلى كتاب إسرائيل ولفنسون (تاريخ اللغات السامية).

شجرة اللغات السامية (الجزرية)

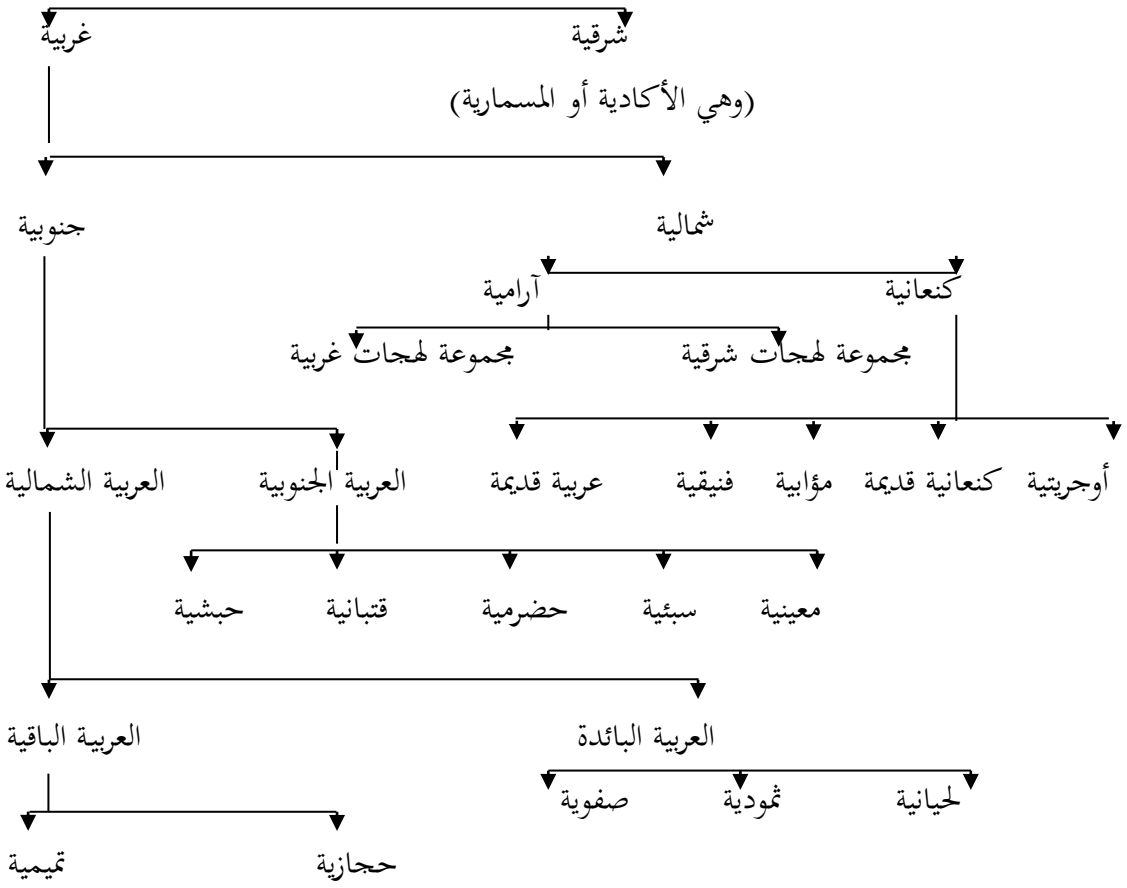

ثمود في القرآن:

آيات كثيرة ورد فيها ذكر ثمود على سبيل الحكاية، والعظة والاعتبار بمصيرهم الذي آلوا إليه، بسبب تكذيبهم نبي الله صالح عليه السلام ، وصدهم عن سبيل الله، واستحبابهم العمى على الهدى .

الذي يعنينا من هذه النصوص القرآنية في هذه الورقات هو ما قد يفيدنا ولو بإشارة يسيرة بما يتصل بمساكن هذه القبيلة العربية وما إلى ذلك، مما يعزز كلامنا عليها، يقول الباري جل وعلا: "وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قومِ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم ءاية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم"، وقوله تعالى: "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا ءالاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين".[١]

ويقول سبحانه في موضع آخر : "وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ۝ ونجينا الذين ءامنوا وكانوا يتقون".[٢] وقال في موضع آخر : "وأنه أهلك عاداً الأُولى ۝ وثمود فما أبقى"،[٣] وقال جل من قائل قارناً ثمود بعاد: "كذبت ثمودُ وعادٌ بالقارعة۝فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ۝وأما عادٌ فأهلكوا بريح صرصر عاتية ۝سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ۝ فهل ترى لهم من باقية".[٤]

عبر النصوص القرآنية السابقة فإنني أستطيع أن أُسجل بعض الملاحظات التي تفيد في موضوع لهجة ثمود وهذه الملاحظات على سبيل الإجمال هي:

١- أن ثمود قبيلة عربية بدليل أن النبي المرسل إليهم كان اسمه (صالح) عليه السلام، وهذا اسم عربي صميم، أضف إلى ذلك أن الإمام الكسائي (ت ١٨٩هـ) قرأ بخفض الدال مع التنوين في لفظ (ثمودٍ) من قوله تعالى: "ألا بُعداً لثمود".[٥] ومعنى هذا أن الكسائي قد قرأ بصرف لفظ (ثمود) وهي إشارة إلى عربية هذا الاسم صراحةً، وحجة صرف (ثمود) من وجهين:

الأول: أن يُجعل اسماً مذكراً لحيٍّ أو رئيس،[٦] "فلا علة تمنع في صرفه، إذ الصرف أصل الأسماء كلها".[٧]

الثاني: أن يُجعل على وزن (فَعُول) من (الثَّمَد) وهو الماء القليل.[٨] على أنّ الوجه الأول أوجه، يقول أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ): "الأجود عند سيبويه فيما لم يُقل فيه: بنو فلان، الصرف، نحو: قريش وثقيف، وما أشبههما، وكذا (ثمود)، والعلة في ذلك أنه لما كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل والأخف أولى، والتأنيث جيد بالغ حسن، وأنشد سيبويه في التأنيث:

غلب المساميحَ الوليدُ سماحةً
وكفى قريشَ المعضلاتِ وسادها".[٩]

٢- وبناءً على ما سبق من إثبات عربية (ثمود) ، فإن مساكنهم لا بد في مساكن العرب وجزيرة العرب تحديداً !

٣- وعبر بعض النصوص القرآنية التي أشارت إلى وصف مساكنهم بأنها منحوتة في الجبال دلالة على أنهم كانوا يقطنون مناطق جبلية صخرية "وتنحتون الجبال بيوتا" .

هذه بعض الملاحظات التي يبدو لي أنني سأفيد منها في بحثي عن لهجة ثمود، ومن هنا أبدأ.

موطن ثمود:

بادئ ذي بدء لا بد من الإشارة إلى أنّ العرب في الجاهلية قد عرفوا ثمود وما كان من أمرها، وآثار مساكنها، وفي القرآن الكريم ما يؤكد ذلك حيث يقول الحق سبحانه وتعالى مخاطباً العرب مذكِّراً منبّهاً: "وعاداً وثمود وقد تبيّن لكم من مساكنهم وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين".[١٠]

ويذكر المفسرون في قوله تعالى :"وثمود الذين جابوا الصخر بالواد"[١١] أن معنى (جابوا الصخر) قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتا، وأن (الواد) هو وادي القرى. فتكون مواضع ثمود في هذه الأماكن. وقد عيّن أكثر الرواة (الحجر) على أنه ديار ثمود، وهو قرية بوادي القرى. وقد زارها بعض الجغرافيين وعلماء البلدان والسياح، وذكروا أن بها بئراً تسمى بئر (ثمود).[١٢] وينسب النسابون ثمود إلى (ثمود بن جاثر أو كاثر بن إرم بن سام بن نوح).[١٣]

ويظهر من جغرافية (بطليموس)، أن ديار ثمود كانت غير بعيدة عن ديار (عاد)، وكلها في أعالي الحجاز في هذه المنطقة الجبلية التي تخترقها الطرق التجارية التي توصل الشام ومصر بالحجاز واليمن. وفي هذا تأييد للروايات العربية القائلة إن ديار ثمود كانت على مقربة من ديار عاد. فإذا كانت (الحجر) وما والاها هي مواطن ثمود وجب أن تكون ديار (عاد) على مقربة من هذه المواضع.[١٤]وقد كان الثموديون يقطنون بعد الميلاد في مواطنهم المذكورة في أعالي الحجاز في (دومة الجندل) و (الحجر) وفي غرب (تيماء).[١٥]

الكتابات الثموديَّة:

عثر الباحثون على كتابات ثمودية يعود تاريخها إلى ما بعد الميلاد، وهي بالجملة في أُمور شخصية، لا تفيد المؤرخ الذي يريد تدوين تأريخ (ثمود) فائدة كبيرة، ولكنها قد تفيد اللغوي في موضوع اللهجة الثمودية واللغات الجزرية بصفة عامة.

والكتابات الثمودية في نظر الباحثين نوعان:

١- كتابات قديمة دُونت بالقلم الثمودي القديم.

٢- كتابات حديثة كُتبت بقلم ثمودي متطور يختلف نسبياً في بعض الأشكال والحروف عن القلم القديم.

كما أن القلم الثمودي ذو صلة بقلم (طور سيناء) والقلم المسند، وقد لاحظ الباحثون وجود بعض الخواص في الكتابات الثمودية التي عثر عليها في الحجاز غير موجودة في كتابات ثمودية عثر عليها في نجد واليمن، وسبب ذلك يعود إلى تأثير البيئات في الثموديين الذين تأثروا – لا ريب – بلهجات جيرانهم وبثقافاتهم، فظهر ذلك في كتاباتهم.

وتدل الكتابات والنقوش الثمودية على أن قوم ثمود كانوا زراعاً وأصحاب ماشية، وأنهم أقرب إلى الحضر منهم إلى أهل الوبر، فمستوطناتهم ثابتة ومعابدهم كذلك ، وبينهم قوم اشتغلوا بالتجارة.[١٦]

والنقوش الثمودية بصفة عامة موجزة جداً حتى ليكاد المعنى يخفى على القارئ خفاءً تاماً، أو يصبح عرضة لتفاسير وتأويلات شتى.

ويظهر أنّ قوم ثمود كانوا ينفرون من الكتابة ولم يكونوا يستعملونها إلا عند الحاجة الشديدة، وهي على غموضها هذا عربية وقريبة من الأسلوب العربي الذي كان مستعملاً في عصر ظهور الإسلام أكثر من غيرها. ومنها يقف الباحث على أسماء الأصنام والأعلام، وعلى جملة من التقاليد في الأحوال الدينية والاجتماعية.[١٧]

ويرى عبد الرحمن الأنصاري أن ما يسمى بالخط الثمودي، ليس إلا مخربشات من خطوط البادية، قلد فيها أصحابها خط المسند، فيقول: "أطلق العلماءعلى بعض المخربشات الموجودة في منطقة (العُلا) ومدائن صالح، والمنتشرة في معظم أنحاء الجزيرة: اسم الخط الثمودي، ولكن الذي أعتقده أنه إنما هو خط البادية. ماذا أقصد بخط البادية؟ أقصد أن هذه القبائل المتموجة في الجزيرة العربية كانت تذهب إلى ديدان والحجر، وترى هذه الخطوط الجميلة، ثم تحاول تقليدها عندما تعود إلى مضاربها. وهذا ما كنا نشاهده... فالكلمات الثمودية نوع من كتابات البادية، ولذا لا نجد فيها معلومات تاريخية قيمة، إنما هي عبارة عن: فلان بن فلان نزل في هذا المكان، أو: فلان بن فلان اشترى جملاً من فلان، كتابات لا يمكن أن تعطي حقائق تاريخية واضحة، ذات حوادث أو ذات طابع حضاري. وقد عانى المستشرقون في قراءتها كثيراً، وغاية ما وقفوا عليه، بعد هذا العناء ، قراءة بعض الأعلام، ومنها أسماء الأشخاص أو الآلهة أو الأماكن، في معرض الدعاء أو الوقف أو نحو ذلك، وقلما قرؤوا نقشاً فيه فائدة تاريخية صريحة.[١٨]

وهنا لا بد من ملاحظة أنّ هذه النقوش لا تصلح وغير كافية لدراسة تاريخ اللغة العربية؛ لأنها نصوص ضحلة لا تقنع الباحث لتلقي ضوءاً كاشفاً على حال اللغة العربية، في تلك العهود، فهي في مجموعها لا تكاد تعادل سفراً صغيراً، من أسفار العهد القديم، هذا إلى أنّ كثيراً من كلماتها عبارة عن أعلام لأشخاص، ولا تكاد تجدي مثل هذه الأعلام في البحث اللغوي، وفوق هذا وذاك تعرضت هذه النقوش لأُمور متشابهة، كتسجيل تاريخ كنيسة أو قبر، مما جعل كثيراً من عباراتها وألفاظها يتكرر، ويجعل نصوصها قليلة القدر، لا تكفي في بحث لغوي جدِّيّ.[١٩]

ويقول إسرائيل ولفنسون مصرحاً برأيه في تلك النقوش الثمودية والصفوية: "ونريد الآن أن نصرح برأينا إجمالاً في هذه النقوش، لا شك أن أصحاب النقوش الثمودية والصفوية من العرب أو هم أقوام لهم اتصال متين بلغة العرب، ولكن العناصر الأعجمية الكثيرة البارزة فيها شوهتها وحرّفتها كثيراً إلى أن محت منها شيئاً غير قليل من الروح العربية والأسلوب العربي".[٢٠] إلى أن يقول: "على أن النقوش الثمودية التي كشفت في أرض عربية أقرب إلى الأُسلوب العربي وإلى أسماء الأعلام المألوفة في الجاهلية العربية أكثر من النقوش الصفوية".[٢١]

ويصل ا.ولفنسون في نهاية بحثه عن اللهجات العربية البائدة إلى القول: "ومن حيث إننا لم نعثر إلى الآن على نقوش في مراكز بلاد الحجاز الأصلية مثل: الطائف ومكة ويثرب، فإننا أمام أمرين: إما أن نحتمل أن العرب لم يتركوا آثاراً منقوشة قبل ظهور الإسلام، وإما أن أوان كشف هذه الآثار لم يئن بعد، أما الأمر الأول فغير محتمل حسب رأينا، إذ لا يُعقل أن العرب في مكة ويثرب لم يكونوا يستعملون الكتابة في عصر ظهور الإسلام، ولدينا روايات تاريخية يقينية عن وجود كُتّاب كانوا قد مارسوا فن الكتابة في ذلك العهد، لذلك يحتمل أن تكون هناك بعض النقوش على الأحجار والصخور أو كتابات على الرق لم تكشف بعد، والمستقبل كفيل بحل أحد هذين الاحتمالين".[٢٢]

أشير هنا إلى أن "أكثر الكتابات الثمودية هي من جمع:(هوبرHuber)، وقد نقل عدداً كبيراً منها، و(أوتينكEuting)، و (Jaussen-Savinag) و (دوتي Doughty)، وقد عمل غيرهم على معالجتها وشرحها وتفسيرها، من أمثال: (انو ليتمن EnnoLittmann)، و(هوبرت كريمه Hubert Grimme)، و (وينت Winnett)، و (هاردنك) وآخرين .

ولا تعني تسمية الكتابات المذكورة بالكتابات الثمودية أنها كلها كانت من كتابات قوم ثمود، أو أن هذه اللهجة التي كتبت بها هي لهجة ثمود حقاً. فالتسمية هي تسمية اصطلاحية حديثة، أطلقها العلماء عليها لورود اسم قوم ثمود في بعضها، وقد أطلقوا عليها تلك التسمية لتمييزها عن غيرها، ولتفريقها عن اللهجات العربية الجاهلية الأُخرى، فهي إذن مجرد اصطلاح قصد به هذه الكتابات المكتوبة بلهجة مماثلة للهجة الكتابات التي ورد فيها اسم ثمود، وبالخط الذي كتبت به هذه الكتابات نفسه.

والكتابات الثمودية قصيرة ، وهي في كثير من الأحوال مجرد أسماء ، دُوِّنت للذكرى، فتراها على هذا النحو:

(لوهب بن رفد) أو (لشهرى بن رفد) أو (لغصن بن اسله) أو (لذاب) (لذئب) ، و(ذءب) اسم رجل...[٢٣]

وأُذكِّر هنا بما مر بنا من أن هذه الكتابات والنقوش الثمودية لم تفدنا من حيث البحث اللغوي في قواعد نحو وصرف هذه اللهجة، إلا في حدود ضيقة جداً استعرض لها عند الكلام على اللهجة الثمودية وقواعدها من نحو وصرف – إن شاء الله –.

القلم الثمودي:

يكاد الباحثون أن يجمعوا على أنّ "القلم الثمودي مشتق من القلم المسند اليمني، ويحتمل أنه جاء إليهم عن طريق قبائل معين التي استوطنت في الحجاز والتي نقلت حضارة اليمن وعمارتها وعبادة الأوثان اليمنية إلى شمال بلاد العرب".[٢٤]

وهذه بعض النقوش الثمودية لنتمكن عبرها الوقوف على لغة وأسلوب الكتابة المسماة بالثمودية:

(١) ق ن ص ا س د : قُنص أسد أو قَنص أسداً

(٢) هـ ع ل م ل ب ب ي: هعلم لببى أي : هذا العلم وضعه رجل اسمه ببى.

جدير بالذكر أن حرف (هـ) الذي جاء في صدر الكلمة (علم) في النقش الثاني هو أداة التعريف (أل)؛ لأن أصحاب النقوش الثمودية لم يكونوا يستعملون (أل) للتعريف كما هي الحال في العربية، ولكن استعملوا حرف الهاء للتعريف كما هي الحال في العبرية، حيث قال (هجمل) أي (الجمل) و(هبيت) أي (البيت) وهكذا....[٢٥]

ومما يُلاحظ في الخط الثمودي أنه خالٍ من الشكل ومن التشديد، ومن الإشباع؛ ولهذا يلاقي قارئه صعوبات كثيرة، فكلمة مثل: (بت) يمكن أن تقرأ على وجوه متعددة، فقد تقرأ مثلاً: (بات) فعلاً ماضياً، و(بيت) اسماً، وكلمة (زد) قد تقرأ: (زيد) أو (زاد)،[٢٦] فالطابع الغالب على القلم الثمودي التحرر من أصوات المد واللين. لكننا في الوقت نفسه نجد أن بعض الكتابات قد استعملت حروف العلة (الألف والواو والياء) أحياناً، وذلك لسد النقص الحاصل من عدم وجود حركات الإعراب، كما في كلمة (نُور) و(اموت)، فقامت الواو بأداء واجب الضمة الطويلة من بداية الكلمة. وكذلك نجد كلمة (دين) و(عظيم)، حيث قامت الياء بأداء رمز الكسرة الطويلة،[٢٧] ومن المعروف لدى الباحثين في هذا المضمار أن الخط المسند يستعمل الخطوط العمودية للفصل بين الكلمات، فهل الحال في الخط الثمودي كذلك؟

في الحقيقة أن القلم الثمودي لم يتقيد باستعمال الخطوط العمودية للفصل بين الكلمات؛ ولهذا نجد الحروف والكلمات متصلة بعضها ببعض في كثير من الكتابات، لا يفصل بينها فاصل، وقلما نجدها تَستعمل بعض العلامات مثل النقط أو الخطوط الصغيرة لتحديد الجمل، كذلك فإن الخط الثمودي قد أطلق لنفسه العنان في اتباع الجهة التي يسير عليها الخط، فنراه تارةً يسير من اليمين إلى الشمال، وباتجاه أُفقي، وتارة يتجه من الشمال إلى اليمين، وأحياناً من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى في أحايين أُخرى، كما نراه – أحياناً- يتخذ شكل قوس أو أشكالاً أُخرى، كأن يمزج بين هذه الطرق بحسب رغبة الكاتب وشكل المادة التي يكتب عليها، وعلى قارئ النص أن يتنبه إلى هذه الاتجاهات لمعرفة أول الكلام من آخره.[٢٨]

وخلاصة القول إن القلم الثمودي مَرَّ بأدوارٍ تحرّر فيها شيئاً فشيئاً من أشكال حروف المسند، لكنها مع ذلك لم تتمكن من أن تباعد بين المسند وبين حروف القلم الثمودي بوجه عام، فالقارئ للخط الثمودي لا يجد نفسه بصورة عامة غريباً عن الخط المسند، وهو إذا ما أبصر القلمين أدرك وجه الشبه ووحدة الأصل بين القلمين، فيحكم بأنّ القلم الثمودي من ذلك القلم العربي القديم.[٢٩]

لهجة ثمود وقواعدها:

عثر السواح والمستشرقون على زهاء ألفين أو يزيد من الكتابات والنقوش الثمودية في حائل بنجد وفي تبوك بمنطقة تيماء ومدائن صالح في الغالب، وفي الطائف والساحل الشرقي للبحر الأحمر في أعالي الحجاز، وفي طور سيناء، وفي مصر في وادي الحمامات، وفي منطقة الصفاة في بلاد الشام، أي في بقاع واسعة من الأرض، وفي هذا الانتشار الواسع دلالة على وصول قوم ثمود إليها، ووجودهم فيها، لأغراض مختلفة، ومنها التجارة، فهم من العرب المعروفين، وورود اسمهم في كتابات الملوك الآشوريين، ومؤلفات الإغريق واللاتين، دليل على وصول خبرهم إلى الروم والرومان.[٣٠]

وعبر ما عثر عليه من هاتيك النقوش والكتابات في المناطق المشار إليها آنفاً، سنحاول معرفة بعض قواعد اللهجة الثمودية، لنرى ما فيها من تقارب من بقية اللهجات العربية البائدة أو الباقية أو تباعد عنها، لنخرج في نهاية المطاف إلى نتيجة "أن هذه اللهجة التي نسميها لهجة ثمود هي لهجة قريبة من لهجة القرآن الكريم، وأنها من مجموعة اللهجات العربية الشمالية، وأن المتتبع لها كلما تعمق فيها وكثر مرانه بقراءة نصوصها، ازداد يقيناً أنّ لغة أصحاب هذه الكتابات لم تكن بعيدة عن لهجة القرآن الكريم".[٣١] وهذه جملة من قواعد اللهجة الثمودية ونحوها وصرفها من خلال ما عثر عليه من كتابات ونقوش تتصل بالثموديين.

الضمائر:

اشتملت اللهجة الثمودية على ضمير المتكلم وضمير المخاطب وضمير الغائب. وهي فيها على نوعين: ضمائر منفصلة وضمائر متصلة، فمن المنفصلة (ان) أي: (أنا) ضمير المتكلم، كما في هذا النقش (ود معن وان رهن) بمعنى (ودَ معنا وأنا رهن) و(وَدّ) هو اسم صنم من أصنامهم،[٣٢] كما أنه يدل على التحية والسلام.[٣٣]

وأما (ات) فهو ضمير المخاطب يقابل (أنت) في عربيتنا. والثمودية في استعمال هذا الضمير قريبة من الآرامية والعبرانية التي تستعمل (atta) للضمير المخاطب، وقريبة من البابلية الآشورية كذلك، مثاله في الثمودية:(هلهى ات م تمعزز ذ) بمعنى: (يا إلهي أنت، تيم عزيز هذا) أو (يا إلهي أنت، تيم عزيز هنا).[٣٤]

ومن الضمائر المتصلة ال (ه) وهو في مقام (هو)، ويستخدم للتعبير عن الغائب، مثاله (دنه قبور صنعه كعبوبر حرثت...) ومعناه (هذا القبر صنعه كعب بن حارثه...). وقد تُحذف ياء الضمير كما في هذا النص:(بِ شرت وشتلم) بمعنى :(بي شر وانشلام)، و(شتلم) من أصل (شلم) بمعنى شدة وضيق.[٣٥]

٢-الفعـل:

الكتابات والنقوش الثمودية أكثرها أسماء، لذلك قلما نجد فيها أفعالاً، لذا فلا يستطيع الباحث أن يتوسع في موضوع الفعل وأزمانه وأبنيته ابتداءً. ومن الأفعال الواردة في كتابات الثموديين (اخذ) بمعنى (أخَذَ) الماضي كما في النقش الآتي: (لعذ بن ملكت اخذ)، أي: (لعوذ بن ملكة أخذ) ، وفعل (بت) بمعنى (بات) كما في هذا النص: (لوسط بن هرب بن دخلت بت) أي: (لوسط بن هرب دخلت. بات).[٣٦]

وقد لاحظ الباحثون أن الكتابات الثمودية تميل إلى تقديم الفاعل على الفعل، وجعل الجمل جملاً اسمية، وذلك كما تقدم في المثالين السابقين، غير أنّ (أخذ) في المثال الأول فعل متعد يحتاج إلى مفعول به، فأين المفعول به؟ قد فسر بعضهم لفظة (اخذ) بمعنى: أُخِذَ على حين غرة، أو قُتل، كما فسرها بعضهم بمعنى: (أُخِذَ) أي: بصيغة المبني للمجهول، ولا يُستبعد أن تكون (اخذ) اسم علم هو (أخيذ) أو (أخاذ) والواو التي قبل (أخذ)هي واو المعية. وإذا صح هذا الرأي كان معنى النص (لعوذ بن ملكت وأخيذ).[٣٧]

أما الفعل المضارع في الثمودية فيعتقد الباحثون بدخول لام التعليل عليه، وذلك في مثل :(هن لمت) بمعنى (هون لأموت) أي: هوِّن عليّ (أرحني لأمت).[٣٨]

ووجد الباحثون فعل الأمر في الكتابات الثمودية "ومعنى هذا أن تلك الكتابات قد اشتملت على الفعل بأقسامه الثلاثة، على حين لم نجد في الكتابات العربية الجنوبية إلا الماضي والمضارع. ويرد فعل الأمر على الأكثر في مخاطبة الآلهة كما في هذا النص: "(عل رضو هضبا)، ومعناه: (أعل رضو. الملجأ)، وتعني (عل) معنى (أُعْلُ)".[٣٩]

ويلاحظ في باب الفعل في اللهجة الثمودية –كما يرى الباحثون – أن الفعل يطابق فاعله من حيث التذكير والتأنيث، فإن كان الفاعل مؤنثاً لحقته علامة التأنيث وهي تاء التأنيث، وإن كان مذكَّراً جُرِّد منها، مثال ذلك: (لصلمرا برات)، أي (لصلمرا برئت). فصاحب الكتابة امرأة اسمها (صلمرا) أو (صمرا)، وقد أصيبت فيما يبدو بمرض ثم برئت فدونت هذه الكتابة لهذه المناسبة.[٤٠]

٣–الاســم:

مر بنا عند الكلام على الكتابات الثمودية أنها مؤلفة – في الغالب – من أسماء أشخاص وقبائل؛ لذلك فإن حيّز الاسم فيها أكبر من الفعل، وفي هذه الأسماء عدد كبير من الأسماء التي كان يتسمى بها العرب قديماً وحديثاً مثل: عمر وعلي وبكر وعاصم وقيس وتغلب وفزارة وخالد والحكم وأُمية، فضلا عن أسماء بعض الحيوانات التي تسمّى بها أشخاص مثل: ضب وقنفذ وعنكبوت وعقرب ودب.[٤١]

الأسماء في الثمودية على قسمين:

١– أسماء بسيطة: وهي المجردة من الزيادة في أولها وآخرها ما عدا تاء التأنيث ، نحو : (زد) أي: (زيد) و (اس) أي: (أوس).

٢– أسماء مركبة: مثل: (زد غث) أي: (زيد غوث)، و(سعدله) أي: (سعد لاه) بمعنى: (سعد الله).[٤٢]

كما أن الاسم في الثمودية ينقسم إلى:

١– جامد: ما لم يؤخذ من غيره ك (وَدّ).

٢– مشتق: ما أُخذ من غيره من أصول الاشتقاق، نحو : (سلم) بمعنى: (سالم) أو (سليم)، و (شمت) بمعنى (شامت)، و (سرر) بمعنى: (سرور).

والاسم من حيث الجنس في الثمودية يخضع للتذكير والتأنيث، فمن الأسماء المذكرة الواردة في كتاباتهم: سعد، أوس، صلم بمعنى: صنم.

ومن الأسماء المؤنثة نجد: (لقيض) على زنة (فُعَيْل)، أو (لَقض) كما قرأها بعض المستشرقين، أي على وزن (فَعَل)، كما في هذا النص: (ذن لقيض بنت عبد منت)، أي (هذه لقيض بنت عبد مناة).

ويُلاحظ أن كثيراً من أسماء الرجال في الكتابة الثمودية منتهية بالتاء، مثل: خلصت (خلصة) أو (خالصة)، وشكت (وشكة).

أما من حيث العدد فالاسم في الثمودية إما مفرد أو مثنى أو جمع، ويُعبّر بحرف الـ(ى) عن المثنى كما في (عُلى) بمعنى: (أُعتلاّ)، ويُعبّر بالألف وكذلك بالنون عن الجمع.[٤٣]

أداة التعريـف:

"وتشارك الثمودية اللهجة اللحيانية في استعمال الـ (هـ) أداة للتعريف، وهي تشدد الحرف الصامت الذي تدخل عليه كما في العبرانية، مثال ذلك: (همّلك) بمعنى: (الملك)، و(هجّمل) بمعنى: (الجمل) ، و (هبّيت) بمعنى: (البيت)".[٤٤]

أسماء الإشارة:

"ومن أسماء الإشارة (ذن) بمعنى: (هذا) كما في هذا المثال: (ذن لقض بنت عبد منت) أي: (هذا لقيض بنت عبد مناة)".[٤٥]

"ويؤدي (ذِ) معنى (ذا) و (هذا) في عربيتنا".[٤٦] وجملة (وذ ود) تعني (وهنا ودّ) و (هذا ود) و (ذا ود)، وتؤدي (ذت) معنى (ذلك)، أي الإشارة إلى الشيء البعيد كما في (وذت لحلم)، أي: (وذلك لحلم).[٤٧]

الأسماء الموصولة:

"ومن الأسماء الموصولة (ذ) وتعني: الذي والذين، كما في هذا المثال: (اهل ذاتا)، أي: (الأهل الذين أتوا). ومن الأسماء الموصولة (بن) بمعنى (مَنْ) أي: الذي، كما في المثال: (هرض اسعد بن دعي اقدش)، أي: (يا رضو أسعد من دعي الأقدس) أو (يا رضو اسعد الذي دعى الأقدس)".[٤٨]

"و(ال) هي اسم موصول كذلك، وتؤدي معنى (الذي) كما في هذا المثال: (ال بذى صلم) أي: (الذي بهذا: صنم). و(بذي) حرف جر واسم إشارة ، ويؤديان معنى: بهذا وبهذا المكان".[٤٩]

٤- حروف الجر:

"وحروف الجر في الثمودية هي: (لِ) وترد بكثرة في الكتابات للدلالة على الملكية والحيازة، مثل: (لخلصت بن حرمن)، أي: (لخلصة بن حرمان)".[٥٠] "والباء من حروف الجر كذلك، كما في هذا النص: (بلهي ودد) ، أي: (بالله ودّ)، ومعناها أيضاً: (بالله السلام) وقد ترجمها بعضهم بـ (السلام على الله).

ومن حروف الجر (ال) أي: (إلى)، و (عل) بمعنى: (على). و (لب) (لِبِ) (لِ) و (بِ) ويؤدي معنى (ل)، ولأجل كما في هذا النص (لب بشر)، أي: (لباثر) و(لأجل باثر)".[٥١]

حروف العطف:

"وحروف العطف في الثمودية، هي حرف: ال (و) ، ويرد كثيراً بين الأسماء لعطف المتأخر منها على المتقدم، كما يرد في الابتداء كما في: (واسد بن سعدت)، أي: (وأسد بن سعدة)، ومن أمثلة عطف الواو ما جاء في هذا النص: (لثريت بن عبد بن همل وثريت خطط)، أي: (لثريت بن عبد همل، وثريت خط)".[٥٢]

٥–النـداء:

"ويكون النداء في الثمودية ب (هـ) ، ولعله (ها)، وهو بمعنى: (يا) النداء في عربيتنا. ويرد كثيراً مع اسم الآلهة كما في (هر رضو سعد لهم) أي: (يا رضو سعد لهم)، وقرأ بعضهم النص على هذا الشكل: (يا رضو ساعد لهم) على اعتبار أن لفظة (سعد) تعني (ساعد) أي: فعل أمر للمستقبل".[٥٣]

"ومن أمثلة المنادى ما ورد في هذا النص: (فهد شر غرت وخلصت)، أي : (فيا ذا الشرى العفو والخلاص)"،[٥٤] وفي غيرها من النصوص. هذه مجمل القواعد التي قد تستفاد من النقوش والكتابات المنسوبة إلى ثمود، من أجل تثبيت سمات وخصائص لهجتها، ومقدار قربها أو بعدها عن عربيتنا الباقية أو أخواتها من اللهجات البائدة.

الخاتمة:

فقد آن لي أن أقول كلمتي في هذا البحث بعد ما تقدم ، فأقول مستعيناً بالله العظيم:

إنّ كل ما سبق من كلام على اللهجة الثمودية عبر ما زُعم أنه من نقوشهم وكتاباتهم وآثارهم الباقية، ما هو إلا ضرب من التخمين والوهم والظن والرجم بالغيب الذي لا ينبني عليه علم، ولا تقوم به حجة ، والعلم –كما هو معلوم – يقين.

ولا نستطيع أن نجزم بيقين مقطوع به غير مشكوك فيه، أن كل ما بلغنا عنهم إنما هو لقبيلة ثمود أو غيرها، فقد يكون لعابري سبيل، أو أقوام أُخرى، ونحو ذلك مما قد يرد عليه الاحتمال، ويبطل به الاستدلال، فعلينا أولاً أن نثبت أنّ هذه الآثار والنقوش عائدة إليهم، ثم نبدأ بدراسة ما يترتب على ذلك، على قاعدة (أثبت العرش ثم انقش)، وقد تقدّم في ثنيات كلامي على كتابات ثمود قول الحق تبارك وتعالى: **"**وأنه أهلك عاداً الأُولى ۝وثمود فما أبقى**"** النجم (٥٠–٥١)، وقوله سبحانه : **"**فأما ثمود فأُهلكوا بالطاغية**"** إلى قوله : **"**فهل ترى لهم من باقية**"**سورة الحاقة (٥) و (٨).

كل ذلك لأصل في نهاية هذا الأمر يقود إلى نتيجة مهمة، وهي: أنه لا يمكن أن نعتمد في دراسة تاريخ العربية ومراحل تطورها في بحث لغويّ جادّ إلا على القرآن الكريم الذي "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد"سورة فصلت (٤٢)، بوصفه المدَوَّنة الوحيدة الأُولى التي لا يمكننا إلا الوثوق بها عقلاً وشرعاً، أما شرعاً فلأنه لا يسعنا إلا ذلك، وإلا لخرجنا من دائرة الإيمان والإسلام. وأما عقلاً فلعدم تسلل التحريف والتصحيف إلى هذا الكتاب، وذلك عبر حفظه وروايته من جيل إلى جيل يُصدِّق بعضهم بعضاً، ويستحيل تواطؤهم على الكذب، بطريق التواتر الذي هو أعلى وأرقى وأنقى طريق من طرق الرواية التي عرفتها البشرية في التثبت والقطع واليقين، هذا الحفظ والتواتر الذي تميزت به هذه الأمة الإسلامية، وخصيصة اختصها الله بها من بين سائر الأُمم.

هوامش البحث:

[١] سورة الأعراف، الآية ٣٧-٧٤.

[٢] سورة فصلت،ا لآية ١٧-١٨.

[٣] سورة النجم، الآية ٥٠-٥١.

[٤] سورة الحاقة، الآية ٤-٨.

[٥] سورة هود،ا لآية ٦٨؛ وانظر: ابن مجاهد، أبوبكر، أحمد بن موسى، **السبعة**، تحقيق: شوقي ضيف، (القاهرة: دار المعارف، ط٢، د. ت)، ص٣٣٧؛ والداني، أبوعمرو، **التيسير**، تحقيق: أوتوبرتزل، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م)، ص ١٢؛ وإسماعيل بن خلف، أبو طاهر، **العنوانفي القراءات السبع**، تحقيق زهير زاهد وصاحبه، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، ص ١٠٨؛ وابن الجزري، **النشر في القراءات العشر**، مراجعة: علي محمد الضباع، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)،ج٢، ص٢٩٠ .

[٦] انظر: ابن خالويه، **الحجة في القراءات السبع**، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، (بيروت: دار الشروق، ط٢، ١٩٧٧م)، ص ١٨٨؛ وابن زنجلة، أبو زرعة، **حجة القراءات**، تحقيق: سعيد الأفغاني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٨٤م)، ص٣٤٥؛ وابن الأنباري، أبو البركات، **البيان في غريب إعراب القرآن**، تحقيق: طه عبد الحميد طه، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٠م)، ج٢، ص٢٠.

[٧] القيسي، مكي ابن أبي طالب، **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، تحقيق: محيي الدين رمضان، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٨٤م)،ج١، ص٥٣٣ .

[٨] ابن خالويه، **الحجة في القراءات السبع**، ص ١٨٨؛ وابن منظور، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، د. ت)، مادة (ثمد)؛ والفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٧م)، مادة (ثمد).

[٩] النحاس، أبو جعفر، أحمد بن محمد، **إعراب القرآن**، تحقيق: زهير غازي زاهد، (بغداد: مطبعة العاني، د. ت)،ج٢، ص٩٧-٩٨؛ وسيبويه، أبو بشر، عثمان بن قنبر، **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، (بيروت: عالم الكتب، ط٣، ١٩٨٣م)،ج٣، ص٢٤٩-٢٥٠؛ والأعلم السنتمري، **تحصيل عين الذهب من جوهر الأدب**، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، (بغداد: دار الشؤون الثقافية، ط١، ١٩٩٢م)، ص٤٥٥ .

[١٠] سورة العنكبوت، الآية ٣٨.

[١١] سورة الفجر،الآية ٩.

[١٢] علي،جواد، **المفصل في تاريخ قبل الاسلام**، (بيروت: ط١، ١٩٦٨م)، ج١، ص٣٢٣-٣٢٤ .

[١٣] السابق نفسه، ج١، ص٣٢٤.

[١٤] السابق نفسه، ج١، ص٣٢٥. بتصرف يسير.

[١٥] السابق نفسه، ج١، ص٣٢٦.

[١٦] انظر: علي، جواد، **المفصل في تاريخ قبل الاسلام**ج١، ص٣٣٠؛ولفنسون، إسرائيل، **تاريخ اللغات السامية**، (بيروت: دار القلم، ط١، ١٩٨٠م)، ص ١٧٧-١٨١ .

[١٧] ولفنسون، إسرائيل، **تاريخ اللغات السامية**، ص ١٨١.

[١٨] عبد التواب، رمضان، **فصول في فقه العربية**، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٣، ١٩٨٧م)، ص ٥٣-٥٤ بتصرف.

[١٩] أنيس، إبراهيم، **في اللهجات العربية**، (القاهرة: ١٩٦٥م)، ص ٣٥ .

[٢٠] ولفنسون، **تاريخ اللغات السامية**، ص ١٨٨.

[٢١] السابق نفسه، ص ١٨٩.

[٢٢] السابق نفسه، ص ١٩٤.

[٢٣] علي،جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، (بغداد: المجمع العلمي، ١٩٥٧م)،ج٧، ص١٨٩-١٩٠.

[٢٤] ولفنسون، **تاريخ اللغات السامية**، ص ١٨٠؛ وغويدي، اغناطيوس، **المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة**، (القاهرة: ١٩٣٠م)،ص٢.

[٢٥] المرجع السابق.

[٢٦] انظر: علي،جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٧،ص١٩١.

[٢٧] انظر:السابق نفسه،**ج٧**،ص١٩١.

[٢٨] انظر: علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٧،ص١٩٢.

[٢٩] المرجع السابق.

[٣٠] المرجع السابق.

[٣١] السابق نفسه،**ج٧**،ص١٩٧.

[٣٢] ورد ذكره في الآية (٢٣) من سورة نوح.

[٣٣] انظر: ولفنسون، **تاريخ اللغات السامية**، ص ١٨١.

[٣٤] علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٧، ص١٩٨ بتصرف.

[٣٥] السابق نفسه،ج٧،ص٢٠٢.

[٣٦] انظر: علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**،ج٧،ص٢٠٣.

[٣٧] انظر:،**ج٧**،ص٢٠٧.

[٣٨] انظر: علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**،**ج٧**،ص٢٠٧.

[٣٩] انظر:السابق نفسه،ج٧،ص٢٠٧-٢٠٨.

[٤٠] انظر:السابق نفسه،ج٧،ص٢٠٩-٢١٠.

[٤١] انظر:السابق نفسه،ج٧،ص٢١٠.

[٤٢] انظر:السابق نفسه،ج٧،ص٢١٠-٢١١.

[٤٣] انظر: علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**،ج٧،ص٢١١-٢١٢.

[٤٤] السابق نفسه،ج٧،ص٢١٢؛ وولفنسون، **تاريخ اللغات السامية**، ص ١٨٠.

[٤٥] السابق نفسه،ج٧،ص٢١٣؛ ولفنسون، **تاريخ اللغات السامية**، ص ١٧٨.

[٤٦] نالسابق نفسه،ج٧،ص٢١٤.

[٤٧] علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**،ج٧،ص٢١٤-٢١٥.

[٤٨] السابق نفسه،ج٧،ص٢١٥.

[٤٩] السابق نفسه.

[٥٠] علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**،السابق نفسه،ج٧،ص٢١٥-٢١٦.

[٥١] السابق نفسه،ج٧،ص٢١٦؛ وولفنسون، **تاريخ اللغات السامية**، ص ١٨٢ .

[٥٢] السابق نفسه،ج٧،ص٢١٦-٢١٧.

[٥٣] علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**ج٧، ص٢١٧؛ وولفنسون، **تاريخ اللغات السامية**، ص ١٨٢.

[٥٤] السابق نفسه .